

مضمون الخطاب الشعري القديم

- اسم الأستاذة: د / رشيدة كلاع
- المقياس: مضمون الخطاب الشعري القديم (تطبيق).
- السنة: أولى ماستر
- التخصص: أدب عربي قديم
- النوع: تطبيق
- الفوج: 3

الحياة والموت

طرفة بن العبد

يمثل الموت حقيقة أساسية لا يمكن لأحد أن يجحد وجوده، أو يتبرأ منه. فهو حجر الزاوية في البناء البشري. والشعراء أنفسهم لم يقدرُوا على الإفلات منه سطوته. وهو ما يفسر تردده في أشعارهم. فكان مجالا خصبا للتأمل في النهاية، والأحزان، والفراق...

اعتنى "طرفة بن العبد" - وهو واحد من شعراء المعلقات - بموضوع الموت، واستمد منه فلسفته للحياة، ومنهجه الفكري. فقد عبّر عن فكرة الفناء، وعدم الخلود في الدنيا، و اللامبالاة بالموت. حوّلت صدمة الموت حالة طرفة إلى مزيد من الشهوانية، والعبث اللاوجودي فيقول:

عُثِثُ فلم أكسل ولم أتلبدِ	إذا القوم قالوا من الفتى؟ خلت أني
ولكن متى يسترفد القوم أرفدِ	ولست بحلال التلاع مخافةً
وإن تقتنصني في الحوانيت تصطدِ	وإن تبتغي في حلقة القوم تلقني
وإن كنت عنها غانيا فاغن وازدادِ	متى تأتني أصحابك كأسا رويّةً
إلى ذروة البيت الكريم المصمّدِ	وإن يلتق الحَيُّ الجميع تُلاقني
تروح علينا بين بُردٍ ومُجسّدِ	نداماي بيضٌ كالنجوم وقينةٌ
ويبعي وإنفاقي طريقي ومُتلدّي	وما زال تشرابي الخمرَ ولدّي
وأفردتُ إفرادَ البعيرِ المعبّدِ	إلى أن تحامتني العشيرة كلّها
ولا أهلُ هذاكَ الطّرفِ الممدّدِ	رأيتُ بني عَبْرَاءَ لا يُنكرونني

ألا أيُّ هذا اللائمي أحضُر الوغى	وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي
فإن كنت لا أستطيع دفع مني	فدعني أبادرها بما ملكت يدي
أرى الموت أعداداً تُفسى ولا أرى	بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
ولولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى	وجدك لم أحفل متى قام عُودي
ومنهنَّ سبقي العاذلات بِشُربة	كُمت متى تُعل بالماء تُزبد
وكرمي إذا نادى المضافُ مُحبباً	كسيد العَصا تبهته المتورد
وتقصيرُ يوم الدَّجن والدَّجن مُعجب	ببُهكة تحت الحباء المعمد
كأنَّ البرينَ والدَّماليجَ عُلقَت	على عُشرٍ أو خروغٍ لم يُضد
فذرني أروِّ هامتي في حياتها	مخافة شربٍ في الحياة مصرد
كريم يُروِّي نفسه في حياته	سنعلم: إن مُتنا غداً أينا الصدى
أرى الموت لا يرعى على ذي جلاله	وإن كان في الدنيا عزيزاً بمقعد
أرى قبرَ نخامٍ بخيلٍ بماله	كقبرٍ غويٍّ في البطالة مُفسد
ترى جثوتين من تُرابٍ عليهما	صفائح صم من صفيح مُنصد
لعمرك إنَّ الموت ما أخطأ الفتى	لك الطول المرخي وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقدُّه لحنفه	ومن يك في جبل المنية ينقد

شرح المفردات الصعبة:

التحامي: التجنب والاعتزال. / البعير المعبد: المذلل المطلي بالقطران. / الغبراء: صفة للأرض. / الطراف: البيت من الأديم. / الخلود: البقاء. / الإخلاق: الإبقاء. / الجدد: الحظ. / الحفل: المبالاة. / الكر: العطف. / المضاف: الخائف المذعور. / الحنب: الذي بيده انحناء. / السيد: الذئب. / الغضا: الشجر. / قصرت: جعلته قصيرا. / الدجن: تغطي الغيم أفاق السماء. / البهكنة: المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة. / المعتمد: المرفوع بالعمد. / البرين: حلقة تجعل في أنف الناقة. / الدمليج: المعضد. / العشر والخروج: نوعان من الشجر. / التخصيد: التشذيب من الأغصان والأوراق. / التحام: الحريص على الجمع والمنع. / الغوى: الضال. / الجثوة: الكومة من التراب وغيره. / التنضيد: مبالغة النضد. / الطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه. / الإرخاء: الإرسال. / الثني: الطرف.

- تحليل النص:

يشير طرفة إلى قضية "اللاخلود" فيقول في أحد أبياته:

وأن أنهل اللذات هل أنت مخلدي مخلدي

ألا أيهذا اللانمي أشهد الوغى

يسأل الشاعر في هذا البيت الإنسان الذي يلومه على حضور الحرب، وحضور الملذات. فهل يمكن له أن يخلده إن كفّ عنها؟ فالشاعر مؤمن بعدم الخلود في الدنيا. لذلك يريد أن يعيش حياته على هواه بلا ضوابط، مستمتعا بكل لحظة. الموت قادم لا محالة، والمسألة ليست أكثر من ومسألة وقت. هذه القناعة أغرقت الشاعر في اللامبالاة، واللاجدوى، ما أكسبه شعورا بالعدم والضياع. إنَّها روح جاهلية، وثنية، تعتبر الموت نقطة نهاية، لا شي بعدها. لذلك لا بد من استغلال الحياة الدنيا في الاستمتاع، وتحقيق رغبات النفس كاملة غير منقوصة. وهو ما سبب له المتاعب، وجلب له الانتقادات من طرف العقل الجمعي.

يؤسس طرفة لفلسفته الخاصة بالموت وملابساته، وما يرافقه من أحداث فكرية أو مادية واقعية فيقول:

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

يبني الشاعر فلسفته الذاتية حول فكرة "استحالة الموت"، لكنّه يحيط هذه الفكرة الصحيحة بسلوكيات خاطئة وتطبيقات سلبية. فالشاعر يرى ضرورة الغرق في الملذات والشهوات بلا حساب؛ لأنّ الموت قادم بشكل مؤكد. فبدلاً من أن يكون دافعاً للزهد والاستقامة، يصبح باعثاً على اللامبالاة والعبث. وهو ما تجلّى في قوله:

فدعني أبادر الموت بانفاق أملاكي

فإنّ كنت لا تستطيع أن تدفع موتي

الشاعر في سباق مع الموت، واقتحام عالمه، وذلك بإضاعة الممتلكات، وتبذير الأموال. والاستمتاع بالملذات إلى أقصى درجة. فإذا كان الموت سيتلف أملاك الشاعر، ولن يُبقي له شيئاً، فإنّ الشاعر لن يمنحه تلك الفرصة ويسبقه لذلك. أصبح الموت حافزاً على الغرق في الملذات بلا ضوابط عند طرفه.

إذا كانت عشيرتي قد تجنبني وأفردتني لما رأته مني من إقبال على اللذات، وإهدار الأموال على المتع. فإنّني لا أبالي بذلك، فإن تباعد عني أهلي وعشيرتي، فإنّ الأبعد أغنياء أو فقراء يصلونني ويتمنون قربي، إما طلباً للعفو، أو طلباً للمساعدة والإحسان.

فيرد على العواذل الذين لاموه على خوض الحروب والإقبال على اللذات في استفهام إنكاري هل سيخلد إن كف عنهما؟

جاء شعر طرفة/القصيدة تعبيراً عن أفكاره، وما يجول بنفسه من مشاعر مختلفة، ومتناقضة أحياناً. إذ نجده يعمل على تفسير موقفه من مسألة الموت، مبرراً لسبب عدم مبالاته به، قائلاً: إنّ له ثلاث خصال تجعله لا يفكر في الموت متى أقبل، منها مبادرته وتبكيه في شرب خمر قبل انتباه العواذل. وإغائته المستغيث ومساعدته للفقير. أما يوم الغيم فيستغله للتمتع بامرأة ناعمة حسنة الخلق، تحت سقف بيت مرفوع الأعمدة. دون أن يأخذ ذلك منه وقتاً كبيراً لأن أوقات اللهو تستحق أن يخصص لها وقت أكبر. يحرص الشاعر على أن يتمتع نفسه بشرب الخمر، حتى إذا باغته الموت يموت رياناً، في وقت يقضي عاذله نجبه عطشاناً.

فما دام الموت مسألة حتمية، لا يمكن لامرئ رده متى جاء، فإنّ نتيجته واحدة على الغني والفقير. كما أنّ لا فرق بين قبوري الكريم والبخيل، فحبل الموت طويل إذا أراد أهلك الفتى، وإن أراد خلفه وراءه، فهو منقاد لقوته.

الحياة والموت

نص لبيد بن أبي ربيعة

إنّ وقوف الشاعر الجاهلي على الطلل ليس من قبيل المصادفة، وإنما هي لحظة ذهنية ونفسية، شكّلت رؤية الشاعر ونظرته إلى الكون وتناقضات الحياة. والوقوف تحت طائلة القهر والاستلاب، الذي تمارسه الطبيعة بحق الإنسان بصورة عامة، والشاعر بصورة خاصة. فهو صراع بين البقاء والفناء، والحياة والموت.

استعراضنا لطلية لبيد بن ربيعة العامري يقودنا إلى الوقوف على أبعاد ثنائية (الانبعاث، الموت) التي تتحرك في إطارها هذه المقدمة فيقول:

عفت الديار محلّها فمقامها	بمئى تأبّد غولها فرجامها
فمدامع الرّيان عُرّي رسمها	خلقاً كما ضمن الوحيّ سلامها
دمنٌ تجرّم بعد عند أنيسها	حجج خلونَ حلالها وحرامها
رُزِقَتْ مراييع النّجوم وصاحبها	ودقُ الرواعِدِ جوْدُها فَرهامها
من كلّ ساريّة وعادٍ مدجنٍ	وعشيّةٍ مُتجاوبٍ أرزّامها
فعلاً فُروع الأيهقانِ وأطَقَلتِ	بالجهلّتين ظباؤُها ونعامُها
والعين ساكنةٌ على أطلالها	عوداً تأجّلُ بالفضاءِ بهامُها
أو رجّع واشمّةً أُسِفَ نُؤورها	كفّفاً تعرّضَ فوقهنّ وشامُها
فوقفت أسألتها وكيف سؤلنا	صمّاً حوالد ما بين كلامها
عُرّيّت وكانَ بها الجميع فأبكرها	منها وغودر نُؤيها وثامُها

شرح المفردات الصعبة:

عفت: لزمت. / **الحل من الديار:** ما حلّ فيه لأيام محدودة. / **المقام:** ما طالت الإقامة فيه. / **منى:** اسم موضع غير منى الحرم. / **تأبّد:** توحش. / **الغول والرجام:** جبلان. / **حجج:** سنين. / **سارية:** السحابة الماطرة ليلا. / **الأيهقان:** نبات. / **أطفلت:** صار لها أطفالا. / **الجهلتين:** جانب الوادي. / **أطلاؤها:** ولد الوحش. / **عوذا:** الحديثات النتاج. / **تأجل:** قطع بقر الوحش. / **رجع:** تردد. / **ثمامها:** نوع من الشجر رخو تسد به خلل البيوت.

التحليل:

جمع الشاعر الجاهلي في طلله بين صورتين متناقضتين هما: **الموت والحياة**؛ حيث حرص من خلال استحضاره لرموز الطبيعة إلى تغليب إرادة الانبعاث والحياة على عناصر الخراب الموت. رغبة منه في عدم الاستسلام ليد الزمن، بقسوته وجبروته. محاولا إيجاد نفسه الضائعة ضمن هذا الخراب الذي رسمت ملامحه الأطلال بتهدمها، في لون من التحدي، والرغبة في الخلاص وتبديد كل ما أثقل هذه النفس من انكسارات.

تعج القصيدة، ومقدمتها الطللية بالألفاظ الدالة على القفر والجذب "أقفر، قفر، إتحّت، عفت" ألفاظ تعكس إحساس الشاعر بتوقف الحياة، وانتصار الموت بجبروته. مما استدعى منه الوقوف بوجه التدمير والخراب. واستدعاء رموز الطبيعة الأخرى، التي يبث من خلالها الحياة في طلله كالمطر، الماء، عودة الحيوانات. هذه الرموز شكّلت حيّزا لا يستهان به، في تغليب إرادة الانبعاث والحياة، على عناصر الخراب والموت والدمار. لتؤطر هذه الثنائية الضدية حركة الإبداع في القصيدة.

تقوم بنية النص على أبعاد الثنائية (الانبعاث/الموت)، فالديار الدارسة وما حلّ بها من بلاء ودمار بفعل الطبيعة المتمثلة في الموت (أحد طرفي الثنائية)، قد تفتحت فيها رموز الطبيعة الأخرى (مطر دافق، ارتفاع فروع الأيهقان، توالد الحيوانات، السيول التي أظهرت معالم هذه الديار، الوشم) الطرف الآخر للثنائية (الانبعاث).

كشف النص بوضوح عن قوة العامل الزمني في إحداث التخريب لهذه الديار، وهذا ما تجلّى في وقفة الشاعر التأملية، التي أشعرته بهمة الموت السحيقة، التي جسدها قوله: (صمًا خوالد) في يأس وعجز عن لقاء الحبيبة.

فأبعبها بمفردات الخصب والانبعاث والنماء وعناصر الحياة فكان (دق الرواعد/المطر)، الذي ساعد على نمو وارتفاع فروع الأيهقان (النبات البري) دليلا على الانبعاث والنماء. فالمطر بديل للجدب والإفقار.

أعطى الشاعر الطلل قدرة كبيرة على مواجهة عوامل الاندثار والخراب. فكأنه يسّح نفسه بعناصر المقاومة والتّحمّل والصبر للانفلات من الواقع المؤلم. فالشاعر يسعى جاهدا للانفلات من قبضة الواقع الأليم المتمثل في الديار الخربة، التي عفا عليها الزمن (الطلل رمز الزمن الذي يتسم رغم ما يشوبه من قسوة بالمضي والانفلات بالإيجابية الواضحة).

المطر (رمز الخصوبة والنماء والحياة) يطرحه الشاعر بديلا للجذب والقحط، الذي حوّل الطلل من حال إلى حال.

منح الشاعر هذه القصيدة القدرة على مواجهة عوامل الاندثار والخراب، محاولا الانفلات من واقع مؤلم، بسط سطوته على مختلف تفاصيل حياته. فلجأ إلى واقع يتمناه ويحلم به. فما توجه لبئد إلى الطلل إلا توجّه للذات بترجيحها. وكأنّ المكان مرآة تعكس أوضاعه الداخلية المتهدمة، التي يأبى أن تستمر على ما هي عليه، في رغبة في التغيير والتجديد، وبعث عوامل الحياة وتغليبها على عوامل الموت والاندثار.

الفرد والجماعة/ الشاعر والقبيلة

عمرو بن كلثوم/ وامرؤ القيس

شغل الشاعر موقعا مميزا في القبيلة، فهو لسان حالها، والناطق باسمها، والمدافع عنها أمام القبائل الأخرى. كثيرا ما توخّد الشاعر مع الجماعة، فيبدو وكأنّ لا وجود مستقل له. إذ لا تكاد الـ "أنا" تظهر في أقواله، بل يغلب على كلامه صيغة الـ "نحن" من خلال ضمير الجماعة "نا"، التي ما فتئت تملأ أشعاره، فيظهر الانتماء إلى الجماعة ويبرز بشكل جلي.

كان الشاعر يحقق وجوده من خلال الجماعة، التي يقودها أو يرسم خطواتها، وينطق عنها. يبرز ذلك من خلال قول عمرو بن كلثوم* مخاطبا عمرو بن هند:

وأَنْظَرْنَا نُحْرِكَ اليقينا	أبا هند فلا تعجل علينا
وَأُصْدِرُهُنَّ حَمْرًا قد رويانا	بأنّا نورد الرّايات بيضًا
عصينا الملك فيها أن ندينا	وأَيّام لنا غرّ طوال
نكون لقيلم فيها قطينا	بأيّ مشيئة، عمرو بن هند
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا	بأيّ مشيئة، عمرو بن هند
متى كتنا لأمك مقتوبنا	تهدّدنا وتوعدنا، رويدا
على الأعداء قبلك أن تلبينا	أن قناتنا، يا عمرو، أعيت
رفدنا فوق رفد الرافدينا	ونحن غداة أوقد في خزازي
وكان الأيسرين بنو أيينا	وكتنا الأيمنين إذ التقينا

فصالوا صولة في من يليهم	وصلنا صولة في من يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا	وأبنا بالملوك مصقدينا
إليكم، يا بني بكر، إليكم	ألمأ تعلموا منأ اليقينأ
وقد علم القبائل-غير فخر	إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون إذا أطعنا	وأنا العارمون إذا عصينا
وأنا المطمعون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا	وأنا التازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطنينا
إذا ما الملك سام الناس خسفا	أبينأ أن نقرّ الذلّ فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ألا لا يحسب الأعداء أنا	تضعضنا وأنا قد ونينا
كأننا، والسيوف مسللات	ولدنا الناس طرا أجمعينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي	تحزّ له الجبابر ساجدينا!
ملأنا البر حتى ضاق عنا.	وظهر البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا

- شرح المفردات الصعبة:

أيام : معارك./ غر: بيض، نصرنا فيها./ طوال: مشهورة-حاربنا الملوك حتى لا نخضع لهم./ القليل: ملك أو الرئيس./ القطين: الخادم./ خزازى: اسم جبل ومعركة من معارك العرب. غداة اوقد في خزازى: في يوم معركة خزازى، أوقد بنو تغلب نارين على جبل خزازى ليعلموا قومهم بكثرة عدد خصومهم بني بكر./ رقد: ساعد./ صال: هجم. يلي: يقرب من مصفدون: مقيدون بالأصفاد./ القببة: الخيمة من جلد، وتكون للملوك والرؤساء. الأبطح: الأرض المستوية./ الجهل: السفاهة.

- التعريف بالشاعر: هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ابن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن دغمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. ولد في 525 ميلادية وعاصر عمرو بن هند (554 . 570م) وأدرك النعمان بن المنذر (580 . 602م). كان كلثوم والد شاعرنا عمرو من سادات قومه، وتزوج من ليلى بنت المهلهل وهو الشاعر الفارس المعروف الزبير سالم أبو ليلى المهلهل وشقيق كليب وائل.

نشأ عمرو بن كلثوم في بيت من أسياد تغلب، وكانت قبيلة تغلب من أقوى القبائل العربية في ذلك الزمن وقد قيل فيها: "لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب الناس". توفر في عمرو بن كلثوم وهو يعيش عز أبيه، ومنعة قبيلته صفات وخصال حميدة قل أن تجتمع لدى غيره، كالشاعرية والفروسية والخطابة والكرم والشجاعة . وهي صفات جعلته سيداً في قومه يشار إليه بالبنان، ويحكى أنه ساد قومه وهو في الخامسة عشرة من عمره. أشارت المراجع التاريخية، أن الملك عمرو بن هند أضمر للشاعر عمرو بن كلثوم الحقد لما رأى عنده من شدة فخر وتباه وتشامخ.. وكان عمرو بن هند ملك الحيرة.

- تحليل القصيدة:

شكّلت المكانة الاجتماعية دافع عمرو بن كلثوم للحديث عن البطولة الجماعية؛ فهو سليل طبقة تحتل هرم الهيكل القبلي، فضلاً عن تميزها بالقوة والشجاعة. ما أهله لأن يعلن إباءه وشموخه، ومن ثمّ عدم الرضوخ للأقوى أيّاً كانت منزلته؛ فالصراع كبير بين الأقوياء على الريادة والسيطرة. لم يكن فخر عمرو بن كلثوم صورة نمطية مكرورة، ولا شعوراً مصطنعاً أراد من خلاله الشاعر رسم تجربة شعرية، بقدر ما كان فخراً صادقاً بالذات وبالعشيرة. فهو ينظر إلى قبيلته "تغلب" بعين الإعجاب والإكبار. في وقت يستصغر غيرها.

غلب الفخر بالجماعة عند عمرو بن كلثوم في معلقته، إذ لا نكاد نجد له فخرا بالذات إلا عند حديثه عن الخمر. ولعل البيت الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة هو قوله:

ورثت مهلهلا والخير منه	زهيرا، نعم دخر الذاخرينا
------------------------	--------------------------

الصوت هنا ليس صوت عمرو بن كلثوم/الفرد المستقل. وإنما صوت الجماعة/القبيلة، التي تتوحد وراء قائدها. ويكون ولاء الفرد لها، ولاءً مطلقاً، ما يجعل منها قوة تُرهّب، ويحسب لها ألف حساب. قد يكون للفرد رأي يقوله ويدافع عنه، لكنّه ينصاع في النهاية لموقف القبيلة وينقاد لها. كان الشاعر لسان حال القبيلة. ينطق بما يوحدّها، ويقنعها بقوتها. ويهيئها للمعركة الدائمة، ويبقيها على أهبة الاستعداد. فالقبيلة في وضع الغزو الدائم، كانت بحاجة لأن تُعلم القبائل الأخرى بمدى قوتها. بل إنّها بحاجة لأن يعلم أبنائها هذا ويعتقدونه. الفخر القبلي كان نوعاً من نشيد القوة الدائم الذي ينشده الشاعر، جاعلاً القبيلة على حالة من التأهب الدائم.

- امرؤ القيس:

انفرد امرؤ القيس عن قبيلته، لينصرف إلى حياته الخاصة. فاختار نمطا من العيش يراه أبوه خطرا على سلامة ملكه. فحاول إصلاحه، وعندما يئس منه طرده. انتمى "امرؤ القيس" إلى جماعة أخرى يجدها أقرب إليه، وإلى نمط الحياة الذي اختاره. فيحيا مع هذه الجماعة وفق ما انتهى وأراد. لكنّه لا يلبث أن يعود بعد قتل بني أسد لجماعته الأولى.

ندم "امرؤ القيس"، إذ رأى أنّ الدهر يتغيّر، بعد أن أفنى شبابه في سلوك طائش، يعلن ولاءه إلى جماعته، ويتعهد بالسير في الطريق التي ترضاه "ملوك حمير وكندة" فيقول:

لعمرك ما إن ضرّني وسط حمير	وأقبالها إلا المخيلة والسُكر
وغير الشقاء المستبين فليتنني	أجرّ لساني يوم نلكم مجرّ

دفعه نبأ مقتل والده وهو في حالة لهو إلى القول:

أرقت لبرق ليلٍ أهلّ	يضىء سناه بأعلى الجبل
يقتل بني أسدٍ ربّهم	ألا كلّ شيءٍ سواه جلل
فأين ربّعة عن ربّها	وأين تميم، وأين الخول؟

متحدثاً عن الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه جماعته/أسرته، ووضع القبائل الأخرى. فوالده هو السيد المطاع (الزّب)، والآخرين هم (الخول). فهو ينتظر من قومه التحرك للثأر من القاتل، وكأنّه يرى ذلك من واجبات القبيلة تجاه واحد من أفرادها، خاصة وأنّ القتل لم يكن شخصاً عادياً، فهو الملك والسيد.

يستشير "امرؤ القيس" ذا الخلصة (كان الجاهليون يستشيرون الآلهة عند كل حدث مهم) بشأن الثأر لأبيه. فيخرج الناهي ثلاث مرات، فيغضب ويكسر الصنم. فهو يرفض أي شيء يمكن أن يمنعه من الانتقام والثأر حتى لو كان المانع الآلهة ذاتها.

لم تستطع الآلهة، ولا حتى الصعوبات التي واجهها امرؤ القيس، أن تثنيه على قتل كثيرين. لقد أراد الشاعر/ امرؤ القيس تحقيق ذاته، من خلال سبل قادته إليها الحياة. الحال ذاته كان في مستهل حياته. وفي الحالتين لم يكن الخيار مطلقاً، وإنّما هو خيار تحقيق الذات في ظل الشروط العامة.

تنتهي الدروب بامرؤ القيس إلى الموت غريباً، بعيداً عن قومه. فالشاعر يريد أن يشعر بأهميته، وبقيمة فقده. فهو يحس بتفرد، يسعى لتأكيد من خلال الجماعة فيقول:

ولو أنّي هلكت بأرض قومي	لقلت: الموت حق، لا خلوداً
أعالج ملك قيصر كلّ يومٍ	وأجدر بالمنية أن تقوداً
بأرض الرّوم لا نسب قرب	ولا شافٍ فيسند أو يعوداً

كما توجد حالات اختار فيها الفرد الصدام مع القبيلة، والخروج عن إرادتها، يدفعه إلى ذلك إحساسه بالظلم، ووعيه بطرق تحقيق ذاته. فكثيراً ما دفع الظلم الفرد للتفكير في مفهوم القرابة، والانتماء إلى الجماعة. وقد يصل به الأمر إلى مغادرة القبيلة، والبحث عن مصيره في إطار جماعة أخرى يختارها بنفسه. وقد تطردهم القبيلة لخروجهم عن قراراتها. (الخلعاء، الصعاليك).

أراد امرؤ القيس في تغزله بنسوة مرضعات وحوامل، استخدام مغامراته في نيل المرأة من أجل تأكيد ذاته، وإثبات قدرته.

وبيضة خدرٍ لا يُرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجّل
ومنهنّ سوقُ الخودِ قد بلّها الندى	تراقب منظوم التمام مرضعا
فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضع	فألهيتهها عن ذي تمام محوّل

فالمرأة هنا هي وسيلة لتحقيق الذات، إنّه يتحدى المجتمع ويغتصب حقوق الآخرين. وترغب فيه نسوة هنّ أزهد الناس في الرجال. ويغدو معشوقا منهنّ. ليصبح الرجل الفرد الأقوى والأجمل والأفضل. فامرؤ القيس الذي آثر في أوائل حياته اللامبالاة بالجماعة/ القبيلة، لصالح زمرة من الندماء، يستدرك بعد مقتل والده حاجته إلى الجماعة، وإلى نصرتها في استرداد حقه المهذور، وبالذات الانتقام من قاتليه. وكأنّه أدرك بعد فوات الأوان أن حياته فردا ستجعله عرضة لكل خطر. لذلك رأى ضرورة التكتل، والعيش في ظل الجماعة/العشيرة.

إنّ حاجة الفرد إلى المساندة الدائمة، وخصوصا النفسية منها، تفسر رغبته في الانتماء. فالنجاح في إشباع حاجاته الذاتية يجعله ينجح في فهم الآخرين. وبالنظر إلى الفرد الجاهلي لا يمكن القول أنه استطاع بحق أن يحقق ذاته، بحيث يشعر بالراحة وإشباع الرغبات. لكن طبيعة حياته تفرض عليه العيش ضمن جماعة تحميه. فإحداث التوازن بين المصلحة الفردية، والجماعية هي مسؤولية القبيلة ومن يتولى قيادتها.

بين الذات والموضوع

عمرو بن قميئة

النص:

دياري بأرضٍ غير دانٍ نُبوئُها	على أنّ قومي أشقذوني فأصبحت
وأضمر أضائاً على كُشوئُها	تنقذّ منهم نافذات فسؤني
وقد يئنّي عن دار سوءٍ نزيئُها	فقلت: فراق الدار أجمل بيننا
إذا عمّت الدّعوى وثاب صريئُها	على أنني قد أدعي بأبيهم
إذا نسكوا أفرأئُها وذبيئُها	وأيّ أرى ديني يوافق دينهم
لها نعمةٌ لا يُستطاعُ بروئُها	ومنزلة بالحجّ أحرى عرفئُها
سليمي إذا هبّت شمالٍ وريئُها	بؤدك ما قومي على أن تتركئُهم
ولا عمرةٍ إلاّ وشيئُها مُصئُها	وعاب شعاع الشمس في غير جئُبة
فُدورٌ كثير في القِصاعِ قديئُها	إذا أعدم المجلوب عادت عليهم
كما ردّ دهادة القلاصِ نضيئُها	يتوب عليهم كلّ ضيفٍ وجانبٍ
يعودُ بأرزاق العيالٍ منيئُها	بأيديئُهم مفرومةٌ ومعالقُ

شرح المفردات الصعبة:

أشقدوني: طردوني وبعادوني. / النبوح: ضجة الناس وصياحهم. / الكشوخ: جمع كشخ وهو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. / النزيج: البعيد. / الصريح: الخالص من كل شيء. / أفرع: ج فرع وهو حُوار صغير يُذبح في أول النتائج ويلبس جلده آخر. / نُفعة: يعني المشعر، كانت ربيعة تقف به، ليس غيره. / جلبة: غيم يطبق السماء، غمرة: الشدة. / وشيكا: سريعا، قريبا. / مُصُوحها: ذهب وانقطع. / قديحها: المغروف. / ثاب القوم: أتوا متواترين، ولا يقال للواحد. / الجانب: الغريب. / دهدهاه القلاص: صغارها. / النضيج: الحوض لأنه ينضح العطش أي ييله. / المقرومة: المعلّمة بحزّ أو عض. ويقال المقرّم، أي المؤثر فيه بعضٌ أو بغير ذلك. / المعالق: قداح الميسر. / المنيح: القدح المستعار. وقيل: هو الثامن من قداح الميسر.

- التعريف بالشاعر:

هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكاية بن صعب بن بكر بن بكر بن وائل. يكنى أبا زيد. من شعراء قيس بن ثعلبة. أحد بطون بني بكر بن وائل. عمرو بن قميئة شاعر جاهلي من معاصري المهلهل وعمرو بن هند. من رجال القرن السادس الميلادي. توفي بعد منتصف القرن السادس. كان عمرو بن قميئة في شبابه جميلا حسن الوجه طويل القامة. مات أبوه وخلفه صغيرا. فكفله عمه مرثد بن سعد. حدثت جفوة بينه وبين عمه بسبب امرأته. فهرب قاصدا الحيرة عند اللخمين. وقد ظهر عدم الوفاق بينه وبين قومه من خلال الأبيات التي بين أيدينا.

تحليل النص:

يضع الشاعر المتلقي أمام وجهة نظره وفلسفته في الحياة، وما يكابده من ألم فيها. ترسم القصيدة نظرة الشاعر لهذا الوجود، من خلال علاقة الذات بالآخر. في قصيدته التي مطلعها:

أرى جاري خفت بها وخفت نصيحها	وحبُّ بها لولا التوى وطموحها
------------------------------	------------------------------

يتناول الشاعر عمرو بن قميئة في هذه القصيدة موضوع علاقته بقومه. فرغم طردهم له، وتبرئهم منه، لم تستطع غربته أن تجعله يكرهم أو يحمل عليهم. فنفسه تتوق إلى العيش بينهم. هذا ما يؤكد فخره بهم، وذكره لمآثرهم (الكرم، الشجاعة، الفروسية) فهو شديد الاعتزاز بقومه. ظل ابن قميئة يشعر بانتمائه إلى قومه رغم إقامته بعيدا عنهم. فتصديقهم لأقوال الوشاة بخصوصه، لم يدفعه إلى تزوير الحقائق حول ماضيهم أو حاضريهم.

استخدم ابن قميئة مقدمة أخلاقية جعلها قاعدة أساسية استند إليها في التعامل مع زوجته. وقومه. وكأنّ النص الشعري يؤسس لمعادلة منطقية في أدب السلوك الاجتماعي المهدب. يقوم هذا المسلك الفردي على وجوب التزام الفرد بأمور عديدة، تجنبه أموراً أخرى يكرهاها، أو تنعكس عليه سلباً. فقد جعل من العفة أساساً بنى عليه مفهومه للكرم، والذي يعكس أصالة العربي، وتمسكه بقيمه ومبادئه الاجتماعية في التعامل. لأنّ التخلي عنه، والتخلي بالبخل سيخرجه عن قيمه وعاداته.

ركز الشاعر في هذه الأبيات من قصيدته، على علاقته بقومه. إذ رسم لنا ما تحلى به من صفات إيجابية (الوفاء، العفة)، التي لم تمنع قومه من إظهار الحقد والعداوة تجاهه. يبدو أن قوم الشاعر لم يقتنعوا بتأصل هذه الأخلاق في ابن قبيلتهم، فطردوه ونصبوا له العدا (أشقدوني). ما دفعه إلى القول:

تنفّذ منهم نافذات فسؤني	وأضمر أضغاثاً عليّ كشوحها
-------------------------	---------------------------

فلما صارت دار قومه دار سوء عليه تجمل بالصبر على فراقها والنزوح عنها:

فقلت: فراق الدار أجمل بيننا	وقد ينتهي عن دار سوءٍ نزيحها
-----------------------------	------------------------------

فلما زاد أذى قومه اضطر الشاعر إلى ترك هذه القبيلة، رغم أنّه ليس بالشيء الهين على نفسه (فراق الدار أجمل بيننا)

حاول الشاعر بيان نقاط التلاقي والاختلاف بينه وبين قومه. والتي تركزت في أمرين: النسب والعقيدة. وهما أمران سيجعلانه مجبراً على الدفاع عن قبيلته ومجدها، حتى وإن كانت الظروف قد جعلته يقيم خارجها.

الشاعر ملتزم بالعقيدة الدينية لقومه وموقفه الإيجابي منهم حين كان سلوك قومه إيجابيا. فهو يستجيب لنداء قومه عندما يُدعى أبناءها الأوفياء للدفاع عنها، وعن كرامتها. مركزا على صفة الكرم التي تحلى بها قومه في محاولة لإعادة المياه إلى مجاريها بينه وبينهم.

أعطى الشاعر صورة للمرأة في مجتمعه، من خلال بيان علاقته بها/زوجته. فقد كان يعبر عن قرب مسافتها منه، ومكانتها بقلبه من خلال إسقاطه لحرف النداء عند مناداتها (سليمي). في وقت يكنى عنها بـ (جارتِي) في أوقات البعد والخصام.

رسم الشاعر صورة لألمه، الذي تسبب فيه حقد قومه عليه، وصددهم له. في قوله: (وقد يَنْتَثِي عن دار سوءٍ نَزِيحُهَا) مستعملا أداة للشرط وجوابا له. فالنأي/البعد لم يكن من اختيار الشاعر، بل قد أجبر عليه. فقومه قد صدقوا أقاويل الوشاة وقاموا بطرده. ما سبب له ألما نفسيا.

استعان الشاعر ببعض الصور البيانية لتعميق دلالة الفكرة، وإعطائها قدرة على التأثير في المتلقي. موظفا الكناية في قوله: (دياري بأرضٍ غبر دانٍ نُبوْحُهَا) فاستعماله لنبح الدار جاء كناية عن اتساع الهوة بينه وبين قومه. ففيها تعبير عن الثبات، والسكون. وما التحوّل إلا بإحلال حالة ثابتة مكان أخرى مثلها. فصوت نباح الكلب لا يصل لبعد المسافة بين الاثنين. فغريته عن ديار قومه تأكيد لعدم وصول صوت نباح الكلاب، والدليل (أشقدوني) أي آذوني، ما اضطره للرحيل والاعتراب.

أعطى الشاعر السياق أهمية كبيرة، مستعملا آليات اللغة المتاحة. من ذلك تأخيرهِ للمبتدأ (مقرومة) وتقديم خبره عليه، والذي جاء شبه جملة (بأيديهم) دلالة على الاهتمام بالمقدم. فقومه أصحاب فضل، ما جعله ينسب الخير لأيديهم/وسيلة العطاء.

كما نجد الشاعر يقسم بحبه لسليمي، مستعملا "الكاف" (بؤدك). فالترتيب الأصلي للجملة هو: بؤدك يا سُلَيْمِي ما قومي على أن تركتهم. وقد ساهم حضور النداء بين الجملة المنفية وما بعدها وهو الجملة الشرطية: (إذا هبت شمال ويرجها) في ربط مستهل الشطر الثاني ببداية الأول. في قوله:

سُلَيْمِي إِذَا هَبَّتْ شِمَالٌ وَيَرْجُهَا

بِؤدِّكَ ما قومي على أن تَرَكَتْهُم

ورد الحذف في قوله: (فراق الدار أجمل بيننا)، فأجمل (اسم تفضيل) يفترض ذكر أجمل لماذا؟ فوظف الحذف لدلالة السياق عليه. إذ غدا فراق الدار أجمل من البقاء فيها بعد ما بادر قومه إلى إيذائه.

نخلص إلى أنه ورغم تعدد بني النص الإبداعي وتباينها، إلا أنها تترابط لتعطي للنص أبعاده الدلالية والبنائية. تمكّن الشاعر من استثمار إمكاناته اللغوية خدمة للمعنى، عبر تكثيف الدلالة.

الملاحظ أن كفة الذات الشاعرة في هذه القصيدة تعلو مرة، وتدنو أخرى، تاركة مجال الانتماء لكفة الجماعة. جاء شعر عمرو بن قميئة معبرا عن ما يجول في فكره، وما تمليه عليه خواطره. بما يتتابه من أمل حيناً، وألم أحيان أخرى. يظهر الصراع النفسي بين حنين الشاعر إلى قومه وعشيرته، وبين ألم طردهم له، وتخليهم عنه. أي بين الذات والآخر.